المورد

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

المجلد الثالث والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥م

WWW.ATTAWEEL.COM

١٩٩٥ | ٢

أسعد الحكيم محمد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

دراسة

في حصارات البصرة وصمودها

بقلم : باسم عبد الحميد حمودي

مجلة التراث الشعبي - بغداد

حملت البصرة دوماً قسطاً كبيراً من اعباء الدفاع عن امن العراق وعن شخصية ارض السواد التاريخية ووقفت ابداً عبر زمنها الممتد من تمصيرها عام ١٤ للهجرة ضد الغزوات الاجنبية الطامعة في ارض العراق . ولم تقاوم البصرة هجمات الجيران فقط بل عاشت في صراعات محاولة انفراد قوة كبرى (في القرن الخامس عشر وما تلاه) انذاك كالبرتغاليين والانكليز بالسيطرة على وجه الخليج العربي والوصول الى وسادة البر الحيوي الاكبر فيه ، بر العراق من جهته الجنوبية ، وخاضت بوصفها منطقة اقليمية (ولاية) وميناء تفاصيل تلك النزاعات متدخلة فيها بايجابية حيناً وبمراقبة وجلة لا تستطيع التاثير حيناً اخر كما سنرى .

من الثابت ان البصرة الجديدة ليست بصرايانا السريانية القديمة ولا بصرة عتبة بن غزوان فقد قامت على انقاض مدينة الموفقية التي بناها الموفق العباسي « لتكون مقراً لحركاته العسكرية » . والثابت ان البصرة بعد سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وتفكك الدولة المركزية قد خضعت لنفوذ عدة قوى محلية واجنبية لا مجال لبحث تفاصيل هويتها باغاضة سوى ذكر ماهو معروف من ان العثمانيين قد انتزعوا حكم العراق من الصفويين اثر معركة جالديران ١٥١٤ م اثر فرار امراء الاق قويونلو امام الصفويين عام ١٥٠٨ .

« وكان لتقدم الفاتح العثماني في بلاد الدولة الصفوية صدى قوي في بغداد حيث اغتصب الحكم نو الفقار الكردي الاصل واعلن ولاءه للسلطان العثماني ولكن الخيانة اعادت بغداد للحكم الصفوي سنة ١٥٣٠ ، وزحف السلطان بجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ »[1]

وكانت البصرة يومئذ بيد الشيخ راشد الطوال الذي خاف سطوة السلطان سليم « فشخص بنفسه الى بغداد وسلم اليه مفاتيحها فما كان من السلطان الا ان امّره على ملكه واعاده اليها سالماً آمناً ولكن راشداً طفى واستبد بعد بضعة اشهر فاضطرت حكومة بغداد ان ترسل قوة لطرده قادها الوزير اياس باشا وظلت البصرة بيد الترك يتولاها امراؤهم او ولاتهم »[2] وإن ظلت العشائر المجاورة تواجه الحكم العثماني في كثير من الحالات لكنها مواجهات غير حاسمة لا تنتهي الا الى حالة عدم ضبط اداري اتسم بها العثمانيون في تفورهم .

أفراسياب

عجز حاكم البصرة التركي درويش علي باشا عن تسديد ارزاق جنده عام ١٠٠٥هـ - ١٥٩٦ للميلاد واتفق مع كاتبه افراسياب الديري السلجوقي على بيعه حكم المدينة بثمانية اكياس من الذهب على ان يخطب للسلطان العثماني في المنابر . فوافق افراسياب وتولى متسلمية البصرة .

ويقول مؤلف زاد المسافر « وكما ان الحامية كانت تركية وسكان البلد من العرب الذين لا يتحملون الاستعباد كان هؤلاء السكان في نزاع وكان النزاع كثيراً ما يؤدي الى الاصطدام مع الترك فيخف اذ ذاك عرب البادية لاسعاف السكان فيحاصرون الباشا في الحصن ومل الباشا واسمه « ايود »[3] من الغزوات والتأديب فعزم على بيع حكومته الى احد اغنياء المدينة باربعين الف قرش وتمت الصفقة وجهز ذلك الغني المشتري اجناداً لنهدئة الناس وسمي هذا الرجل العظيم افراسياب باشا »[4]

ويقول لونكرك عن افراسياب : « فقد قيل - نقلاً عن زاد المسافر - ان اباه كان من عم سلجوقي قديم وان امه كانت امرأة عربية من الدير وكانت قدرته على جمع القوة تدل على موازنة المقبائل له »[5]

والمهم ان افراسياب قد استطاع الحصول على لقب الباشوية من الباب العالي وان يظل على ارتباط اسمي بالاستانة وان يوطد دعائم الحكم والنظام خارج البصرة وضواحيها حتى شمل ذلك قبان والدورق ، واستنجد به والي الحويزة منصور بن طالب للعمل ضد الشاه . ولكن هذه المرحلة التي تميزت بالاستقرار لم تستمر طويلاً فقد تزايدت مشاكل العشائر المجاورة وان ظل افراسياب صامداً بوجهها وبعيداً عن منازعات البرتغاليين والهولنديين والانكليز في موانىء الخليج العربي الاخرى . وقد سبب وجود البرتغاليين في بندر عباس علاقة ضعيفة لهم افراسياب

ازدادت تدريجياً وقوبت تجارياً وسياسياً فاصدر الشاه في ١٦٢٤ اوامره الى خان شيراز (امام قلي خان) بمعالجة هذا الازعاج الذي اضعف حركة ميناء بندر عباس التجارية بشكل واضح .

وفي تلك السنة (١٦٢٤) التي ضعفت فيها حالة افراسياب الصحية تولى ولده علي باشا مهمة الدفاع عن البصرة بعد ان ادرك هو ووالده ان مطالب حاكم شيراز (امام قلي) له لا تحتمل الا الحرب . فقد طلب اليه هذا باسم الشاه عباس ان يتخلى عن تبعيته لتركيا العثمانية وان يتقبل التابعية الايرانية (وان يذكر اسمه في الصلاة ويتخذ الازياء الفارسية في الملبس ويكون في مقابل ذلك والياً وراثياً لا يقدم شيئاً من الجزاية)[6]

وكان من الطبيعي ان يرفض افراسياب ذلك بدعم من البرتغاليين (حلفائه الذين يتاجر معهم) فتقدم جيش امام قلي من شيراز بين طريق تشتر فتصدت له البواخر البرتغالية في ميناء قبان (التي تتبع البصرة)

فصيته .

في خلال ذلك توفي افراسياب وخلفه ولده علي باشا وكان افراسياب قد حكم بين عامي ١٦١٢ ـ ١٦٢٤ ولكن ابنه علي كان يشاركه امر الحكم كما قلنا فطلب مساعدة استانبول معلناً ولاته لها رغم امله الضعيف في ذلك . واسباب عدم تعويل علي باشا على نجدة العاصمة العثمانية يعود الى :

١ ـ ضعف سيطرة الولاة العثمانيين على بغداد اساساً .

٢ ـ بعد المسافة بين البصرة والعاصمة المركزية .

٣ ـ روح الاستقلال التي طبعت حكم اسرة افراسياب .

٤ ـ قيام الايرانيين بقطع طريق دجلة والفرات الامر الذي يكبد القوة المساندة من جهة الشمال ـ لو قدمت ـ الكثير من الجهد والانفس .

والظاهر ان امام قلي قد تحرك ليس نحو البصرة فقط بل دفع امامه قوة امير الحويزة التي انسحبت الى البصرة لتعين جيش علي باشا على الصمود .

ويصف لونكرك ما حصل بعد ذلك منذ آذار ١٦٢٥ حيث يقول :

« كانت البصرة تنتظر هجوم الخان وهي عالمة بزحفه من الحويزة وكانت قوة علي باشا صغيرة حديثة فاعار البرتغاليون الباشا خمس سفن مسلحة بعد أن دفع لهم ما ارادوا ثم اعلن التجنيد العام في المدينة وكانت قد تعالت اصوات الوطنية فيها ، وجند اشراف البلد القوات المتطوعة فمشت الى معسكر الباشا وفي اعدادها الصائغ المسلمون ايضاً ، وقسمت القوة البحرية فرافقت ثلاث سفن منها علي باشا الى القرنة حيث كان من المتوقع أن يحاول الايرانيون العبور وانحدرت اثنتان الى الجنوب لوقف اي تقدم قد يحدث من تلك الجهة »[٢] وهكذا استعد علي باشا بن افراسياب وقواته النظامية والمتطوعون الوطنيون من العشائر واهل المدينة لمقاومة الهجوم الايراني لكن القوة الايرانية انسحبت فجاة لسبب لم يعرف مباشرة وإن كانت الدلائل تشير الى ان اضطرابات حدثت في شيراز اضافة الى عدم مساندة امير الدولة (المشعشعية) (منصور) لامام قلي في عدوانه[٣] وقد عد البصريون انسحاب قوات قلي خان انتصاراً لهم ولصمودهم وقد عزز مكانة علي باشا وصول فرمان السلطان والخلعة والسيف في مايس ١٦٢٥ وبذلك استطاع هذا الحاكم العراقي المولد والنشأة ان يدير حكم ولايته بشكل ناجح وان يخضع القبائل المجاورة في منطقة الجزاير (الاهوار) ويصفه الشيخ فتح الله الكعبي ايام حكم علي باشا التي استمرت ٤٥ عاماً بقوله « كانت شبيهة بايام هارون الرشيد في الرفاهية وطلب العلم والاداب والشعر وامن السبيل فهابته الملوك وانقادت له ، وفتحت في ايامه الجزاير بعد ان عجز عنها عسكر السلطان وفتح كوت ممعر من يدي حاكم بغداد » .

وقد ظل علي باشا بعد ذلك يحكم البصرة دون ان يتحرش به الشاه الصفوي وهو يحتل بغداد ، وعند عودة العثمانيين بدأ تحرشهم بحسين باشا الذي تولى الحكم بعد وفاة والده علي باشا عام ١٦٥٠ وسبّب هروب اخويه احمد وفتحي للسلطان مشكلات عديدة له فقد استطاعا اقناع والي بغداد مرتضى باشا سنة ١٦٥٣ بالهجوم على البصرة فهرب حسين باشا منها ملتجأ الى عربستان ولكن مرتضى لم يتبع سياسة حكيمة في البصرة اثر استيلاءه عليها فاعدم عدداً من الاشراف وشقيقي حسين (احمد وفتحي) مما سبب ثورة اهلها مع عشائر الاهوار والقرنة فانسحب مرتضى منها الى بغداد فعاد حسين باشا الى حكمها ليستولي على القطيف ويهاجم الاحساء ، وهنا بدأ هجوم العثمانيين الجديد على البصرة بقيادة ابراهيم الطويل (والي بغداد) في تشرين الثاني ١٦٦٥ فتقدم حسين الى القرنة ليدافع عن حاضرته لكن الجيش العثماني دخل البصرة من جانب آخر . ويصف لونكرك ما حدث بعد ذلك بقوله « في غياب حسين عن البصرة اضاعت له الفتن عاصمته بصورة وقتية فقد وجد ابراهيم باشا الوسائل لتوهين اخلاص البصريين الاقوياء وولائهم وحدث في اواخر حصار القرنة ان اضطر حسين من قلة الارزاق لاغتصاب سفن مشحونة بالمؤن من شط العرب ولم يعد الى اصحابها الا عشور سفن مهشمة فارغة فسارع هؤلاء بدافع الغيظ للانضمام الى الفاتحين واجتمعوا فبعثوا بكتاب الى الباشا الطويل في خطوطه الحربية في القرنة يخبرونه بان البصرة اصبحت في فوضوية من الحكم ومعرضة للاضطراب ورجوه ان يرسل حاكماً عنه لينقذ الميناء من سيدهم فارسل سولاق حسين مندوباً عنه »[٤] وكان من الطبيعي أن يسعد سكان البصرة بوصول المتسلم العثماني لكنهم كانوا يدركون ابعاد اللعبة فكون الشيوخ والتجار « سلطة موحدة وفضلوا ان يحتفظوا هم بالحكم على ان يسلموا المدينة الى غريب لا سند له »[٥] فعرض محمد بن بوداق معتمد حسين باشا السابق أن يعيد المدينة الى سيطرته فوافق وهذا بدأ انصار ابن بوداق بمهاجمة مراكز الحكومة البصرية الموقتة فحاربه رجالها حتى قضوا عليه وطاف البصريون في شوارع المدينة فرحين بانتصارهم على حاكمها الذي اتعبهم كثيراً (حسين باشا) وعلى القوات العثمانية لكنهم نسوا حماية ابواب المدينة فدخلتها قوات حسين باشا مرة اخرى وقبضت على بعض الاشراف واعدمتهم فيما هرب الباقون وبذلك سقطت الحكومة البصرية المستقلة فيما استمر النزاع خارجها بين قوات حسين باشا والقوات العثمانية وانتهى الامر بالتفاوض بينهما و اتفاق على ان يتنازل حسين باشا عن الحكم الى ابنه افراسياب وان يعتذر للسلطان ويعد الى مكة ، فوافق حسين على ذلك لكنها كانت مواقفة اسمية لتطمين القوات القادمة فقد ارسل بعد ذلك كتب استرحام واكياس نقود الى السلطان بيد وزيره يحيى اغا وفي الاستانة قابل يحيى وفداً بصرياً جاء الى السلطان لرفض حكم حسين او اسرته فقرر السلطان تعيين يحيى بديلاً عن اي فرد من اسرة افراسياب التي بدأ الهجوم عليها وعلى البصرة من جديد في تشرين الثاني ١٦٦٧ .

وعانت البصرة في هذا العام كثيراً من احتراب المتحاربين وتركها حسين باشا ملتجأ الى قلعته في القرنة بعد أن خرب الكثير من معالمها وضاع مجد البصريين بقيام حكم آمن مستقل عن النفوذين العثماني والايراني نتيجة حد[illegible] حاكم مثل حسين باشا لم يتبع مسيرة والده علي ولا جده افراسياب في الاهتمام بالبصرة وعمارها وتقدمها الحضاري دون شن حروب استحر بية على مايجاوره من امارات لا طاقة له على توحيدها او اخضاعها الى حكمه وهو مجرد حاكم لامارة صغيرة ، وقد تكررت تجربة حسين باشا على يد الحاكم الجديد الذي طرد الاتراك منها واعتصم جيشه المحلي بالقرنة دون نجاح فعاد رجاله الى البصرة لينتقموا من سكانها يتبعهم الجيش السلطاني بقيادة مصطفى باشا الذي حاصر المدينة ثم دخلها ليفر منها يحيى الى الهند سنة ١٦٧٠ .

حكومة ١٦٩٠

بعد استقرار غير كامل على يد الولاة العثمانيين وفي عام ١٦٩٠ (١١٠٢هـ) تفشى الطاعون في المدينة « واخلى شوارعها المكتظة فقد كان الذي يموتون بمقدار خمسمائة في اليوم وتكدست الجثث في الازقة وبقيت غير مدفونة وعانت الويلات من وطأته جميع الطبقات عندها وقدرها حتى الحامية الاجنبية فيها فاغتنمت القبائل في الخارج فجمعت قبائل المنتفك والجزائر ثلاثة آلاف خيال تحدث بهم الحكومة واشرفت على المدينة فلم يكن في وسع احمد باشا الا جمع خمسمائة مقاتل قابل بهم القبائل الغازية وقاومها في حرب طويلة في موقعة الدير فانفوا ـ على ما يقول الكسندر هاملتن ـ الا القليل منهم وكان الباشا نفسه بين الموتى ولم يبق بين اسواق البصرة والعرب الغائزين شيء »[١٠] وهكذا خاضت البصرة حرب معلكة اخرى وحصاراً آخر اوشكا على الانتهاء باختيار السكان ـ مضطرين على ما يبدو ـ حسن / نائب الوالي والياً جمع من كان قادراً على القتال ليقاوم هجوم العشائر من جديد ونظم مقاومة عنيفة انتهت بانتصاره وقتله هو ايضاً ليختار الاهالي رجلاً يدعى حسين جمال والياً عليها وظلت البصرة محور نزاع السلطة العثمانية مع القبائل المجاورة حتى ان امراء الحويزة طمعوا فيها وحكموها عدة اشهر حتى انتهى الامر بسيطرة والي بغداد مصطفى باشا عليها عام ١٧٠١ حيث « تجمعت الجيوش من كل الولايات واستخلصوا البصرة من الشيخ مانع »[١١] .

تصدي البصرة لصادق وكريم خان الزند

من حوادث سنة ١٧٧٥ قيام صادق خان شقيق كريم خان الزندي الوصي على عرش ايران في تلك الايام بحصار البصرة بغية الاستيلاء عليها وكان حاكمها في تلك الايام المتملك سليمان اغا قد طالب والي بغداد عمر باشا بالمساعدة وهو يحدث الاهلين (على الدفاع وراعى لوازم الحصار ، اما الايرانيون فقد احاطوا بها من كل صوب وشرعوا بالحرب فطالت المحاصرة) كما يقول عباس العزاوي[١٢] الذي يضيف قائلاً : (فالوزير ـ يقصد الوالي ـ لم يستطع ارسال قسم « من جيشه « الى جهة الا انه كان يبعث الامل ويحرض على الثبات على الدوام في القتال والمحاصرة) واتصل بالعاصمة بغداد يطلب النجدة دون استجابة وهنا اضطر المتسلم سليمان اغا دعوة العشائر لفك طوق الحصار فحضر « ثامر بن سعدون وثويني بن عبد الله اول المحاصرة فلما ضاق الخناق نجوا على النواجي اذ ملا من المصابرة »[١٣] كما يقول عثمان بن سند في (مطالع السعود) ويشير المحققان في الهامش (٨٢) الى ان ثامر بن سعدون « هو الذي تصدى للقوات الفارسية في موقعتي الفضيلية وابي حلانة واجبرهم على الانسحاب من البصرة بما الحقه بهم من خسائر كبيرة » فيما بعد ويشير (ابن سند) الى ان جملة من زعماء العشائر الذين ساندوا متسلم البصرة الشيخ سليمان (الغنام) والظاهر أن والي بغداد عمر باشا كان يشعر بقرب انتهاء ولايته فلم يتحرك لنصرة البصرة حتى قدم بغداد مصطفى باشا الذي تسلم الولاية دون مقاومةبرغم ان عمر باشا لم يخرج منها بل بقي فيها عند المنطقة (العطيفية) فهجمت عليه قوة من انصار الوالي الجديد فحاربها ثم هرب سالكاً طريق الموصل وعند الكاظمية عثر به فرسه فمات فقطع احد الحدود رأسه ويقول عباس العزاوي نقلاً عن تقرير كتبه الحاج علي باشا والي طرابزون وسماه (تاريخ جديد) او (يادكار تاريخ) في ٣ شوال سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) : « ان الدولة نشأت فيها احوال ناجمة عن قلة التدبير من اهمها ان بغداد كانت في حالة توتر بينها وبين ايران وأن اعتداء كريم خان الزندي كان مريحاً الا انه قبل أن ذلك متولداً اتخذه عمر باشا والي بغداد من اوضاع ضد رعايا ايران من يد (مبغظوا) الوزير وبينوا انه لو عزل لما بقي ما يدعو للخلاف »[١٤] ويدفي علي باشا ـ كاتب التقرير ـ ان يكون سبب هجوم كريم خان على البصرة غضبه من عمر باشا ويرى ان « كريم خان مدّ يدّ البغي ولم يكن مضطراً لما قام به »[١٥] .

هنا ارسلت الدولة العثمانية ثلاثة وزراء لحرب ايران هم مصطفى باشا واوزون عبد الله ومصطفى خليل باشا جراغي ، فاهتم هؤلاء بقتل عمر باشا واصبح مصطفى باشا والياً وارجع عسكر اوزون عبد الله باشا وعبدي باشا الموصلي من منطقة البصرة بدعوى انه تصالح مع ايران .

ويكشف عثمان بن سند عن تآمر مصطفى باشا مع كريم خان على دخول الاخير البصرة بخطة رسمها الاول بحيث سحب الجيوش العثمانية عنها وترك البصرة وحيدة باهلها وعشائرها ومتسلمها لتواجه قوات صادق خان ويقول ابن سند ما نصه ان الوالي « كتب الى متسلم البصرة سليمان أن المدد يصيد لكم من جهة السلطان فاما أن تصطلح مع العجم واما ان تسلم البصرة لهم لاجرم . وكتبه الى الدولة بان صلحنا مع العجم انتظم وأن يدهم عن البصرة كفت »[١٦] ويقول لونكرك ان هدف مصطفى باشا من قتل عمر باشا كان الاستيلاء على ثروته وقد فعل وانه انفق ذلك « بالتضييق على اغنياء البلد »[١٧] بغية نهب ثرواتهم « وانه كتب الى استانبول بان البصرة اصبحت تابعة له وقد لاذ الايرانيون بالفرار منها »[١٨] في وقت كان الايرانيون فيه قد دخلوا البصرة وقد اعتمد مصطفى الاسبينا خجي في ذلك ـ في زعمنا ـ على بعد المسافة وقلة مصادر معرفة المركز بما يدور في الاطراف الا انه عند انكشاف الامر عين السلطان عبدي باشا الذي دخل بغداد وفرمان عزل مصطفى بيده فهرب هذا الى الموصل حيث اعدمه القبوجي جزاء خيانته وتخاذله ، ثم اعلن السلطان بعد ذلك ان عبد الله باشا قد اصبح والياً على بغداد بدلاً من عبدي الذي حكمها اسبوعاً واحداً ، الا ان عبد الله لم ينفذ هذه المهمة لضعفه ولهوه فاختار السلطان سليم سري وارسله على بغداد وحين وصلها بدأ بمفاوضة ايران بتأثير عجم محمد ثم جرى تعيين سليم قائمقاماً في وقت انقسم فيه مماليك بغداد بين انفسهم على زعامة اسماعيل اغا او عجم محمد وظل النزاع مستمراً خمسة اشهر حتى عين حسن باشا والياً ودخل بغداد في الرابع من مايس ١٧٧٨ ليبدأ محاولة تصفية الفتن الداخلية .

اما البصرة فقد قاومت الحصار الذي فرض عليها من قبل قوات صادق خان في وقت كانت فيه قوات كلب تناوئ الطرفين حتى غزت البصرة منتصف شتاء ١٧٧٥ ، وكان المتسلم (سليمان اغا) والقبطان (؟؟ القوات البريطانية البحرية) والوكيل (القنصل البريطاني) يجتمعون يومياً مع اشراف البلد لترتيب مهمات الدفاع وكان سليمان رجلاً شجاعاً واداريا جيداً استطاع ترميم السور ونصب المدافع وتدريب الجند حتى كان اليوم السادس عشر من ايار حيث وصل الايرانيون الى مصب نهر السويب طالبين دفع الدية (او الجزية هنا) فلم يرد عليهم احد ، وعند

وصول اسطولهم وضع سليمان عدداً من الزوارق الكبيرة في صدر شهر العشار وربط بعضها بالسلاسل لمنع الاسطول من النفاذ فارتاح المدافعون لهذا العمل والتحق الشيخ تامر السعدون بالبصرة وعهد للشيخ عبد الله بحماية الزبير .

وفي السادس عشر من نيسان بدأ الايرانيون الهجوم ومحاولة تسلق السور فيما « ابلى البصريون وخاصة المنتفكيين اتباع تامر بلاء حسنا في الذب عن المدينة خاصة وكانوا يسمعون هلاهل نسائهم وصرخاتهن داعيات لهم بالتشجيع وضبط القبطان بكل قواه صدر النهر فحاب الهجوم وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين معلقة على ابواب السور »[18]

ورغم ان هذا الهجوم قد دفع الانكليز للتخلي عن المساعدة ومفاوضة صادق خان مرأ ثم انسحاب اسطولهم فان امام عمان تعهد لمتسلم البصرة بالتجهيزات (ووعد بدفع الجراية له وامسكت سفنه الاجرة عدان الشط وضبطته طول صيف ١٧٧٥ »[19] وهكذا اخذت المؤن والذخائر تصل البصرة عبر الشط من عمان ومن بني خالد والمنتفك عبر الطريق البري مما مكن البصرة من الصمود ولكن الضيق بالداخل اشتد وباع الاهالي كل ما يملكون للحصول على الطعام ، وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ نفدت المواد والذخائر داخل المدينة وهلك الكثيرون من الجياع ولم تتحرك استانبول للمساعدة الجدية فتفاوض سليمان باشا صادق خان بعد حصار دام ١٤ شهراً فدخل صادق المدينة في اخر اربعاء من صفر ١١٩٠ (١٥ نيسان ١٧٧٦ م) وقد القى القبض على المتسلم والدفتري وصاحب الكمرك وسائر الوجوه والاعيان واستولى على اموالهم الظاهرة والخفية وارسلهم اسرى الى كريم خان في شيراز ثم انه اراد أن يأخذ الاموال الاخرى من البصرة فتعدى وتجاوز بظلم وعسف وسلب الاهلين من اعيان واداني فلم يذر احداً الا غرمه وانتهبه وصار اهل الثراء لا يستطيعون الحصول على قوت يومهم وانما كانوا يمدون يد الاستجداء »[20] ثم عين علي محمد خان بديلاً عنه وغادر البصرة التي عاني سكانها انذاك « الطاعون المروع واهوال المجاعة واحتلال الجند الاجنبي للبيوت »[21] وفي وقت حافظت فيه الزبير على جو من الحرية القلقة لبضعة اشهر .

كان من نتائج الحصار ودخول قوات صادق المدينة ازدياد حوادث الخطف والسرقات وفقدان الامن فشن علي محمد خان (على البلد اجمع غارة هوجاء خلواً من الرحمة وحدث خلال المذبحة السهلة التي جرت في سكان البلد العزل عن الدفاع أن قتل جماعة من الشيخ المنتفكي »[22] وهو امر دفع تامر السعدون وصحبه للانتقام .

وفي الوقت الذي اندفع فيه محمد علي خان عدة اميال داخل اراضي المنتفك بستة آلاف رجل وثمانية عشر زورقاً تحمل المدافع اعتصم تامر في منطقة الفضيلية على مبعدة من المرجة التي كان الايرانيون يتقدمون اليها وهم يعقبون قبائل المنتفك التي تظاهرت بالانسحاب . وما ان وقع الايرانيون في الفخ حتى شنت قوات تامر وثويني هجومها عليهم فهلك منهم المئات سباحة وقتلت اعداداً اخرى بينها القائد علي محمد ذاته ولم ينج منهم سوى ثلاثة انفار على ما ينكر لونكرك في وقت يذكر فيه عثمان بن سند (ص ٨٨ وما تلاها) ان الهجوم الاخير فتل فيه علي محمد خان في ابي حلانة . والمهم هنا ان صادقاً عاد الى البصرة محاولا المفاوضة مع المنتفك للاذعان له دون جدوى واصبح احتلاله للبصرة مكلفاً بعد اربع سنوات من استمراره فغادر البصرة مع جيشه في منتصف اذار ١٧٧٩ بعد ان سلم امورها الى اعيان البلدة وقد وعدهم بفك اسر سليمان اغا الذي عاد ودخل البصرة بعد وفاة تامر باسناد من صديقه ثويني العبد الله ولكنه اخذ يتطلع الى حكم بغداد وقد حكمها تحت اسم سليمان باشا الكبير .

انتفاضة ثويني في البصرة

في اوائل عام ١٧٨٦ ثار سليمان الشاوي قرب بغداد املاً في الحصول على منصب الوالي وطرد الاتراك منها ووقفت معه عشائر دون اخرى وفقد النظام في بغداد مدة من الوقت وعجز الوالي عن ضبطها حتى ضعف سليمان وهرب الى شيخ المنتفك ثويني .

وكان ثويني قد ساعد قبل هذا متسلم البصرة عام ١٧٨٤ و (اختبر في تلك الحملة مقدار ضعف الاتراك ومقدار اخلاص اتباعه له)[23] فقرر الثورة والاستيلاء على البصرة وسانده في ذلك سليمان الشاوي بمشورته وحمد ال حمود شيخ الخزاعل فتقدمت قوات ثويني الى الزبير وقبضت على متسلمها ابراهيم بك مع حاشيته ثم (ارسل ثويني قسماً من خيالة المنتفك فدخلت البصرة واستولت على السراي ثم فرقت الحامية وشتت شملها ومع ذلك كله بقي البلد سالماً من الاضطراب الى ان دخل ثويني مع خمسة آلاف من رجاله في اليوم الثالث فعادت حكومة البصرة حكومة عربية)[24] وحصل ثويني من سكان البصرة على تواقيعهم في عريضة مرفوعة للسلطان يطلبون فيها اعترافه بحاكمية ثويني عليهم ثم خرج ثويني من البصرة (بعد أن ارسل عريضته الى استانبول) وخيم خارجها منتظراً النتائج وقد وضع شقيقه نائباً عنه فيها وعند التقاء جيشي الوالي وثويني كان النصر لجيش الوالي فهرب ثويني الى البادية وظل خارج سيطرة العثمانيين حتى عام ١٧٩٢ حيث عفى عنى فعاد الى بغداد لتستخدمه الدولة بعد ذلك في حربها ضد الوهابيين .

وبعد

فقد خاضت البصرة عبر تاريخها الطويل حروباً متعددة ونشأت فيها امارات مختلفة استقلت تارة وعقدت تحالفات مع ما جاورها او بعد عنها ولكنها كانت دوماً اسيرة وضعها الجيو ـ سياسي بوصفها مفتاح الخليج العربي والبر العراقي ومكان اصطدام القوى الكبرى (انذاك) ببعضها اضافة الى كونها مثار اعجاب الثوار على العثمانيين والفرس ومكان لجوئهم اليها وحريتهم فيها .

ولا شك ان وثائق عديدة ما تزال بعيدة عن متناول اليد ـ لسبب او لاخر ـ ستكشف بصورة اكثر جلاء عن مدى مقاومة البصريين للغزو وللحصار وللاحتلال وعن مدى اسنادهم للامارات والدويلات العربية والعشائر المجاورة كالدولة المشعشعية وامارة الحويزة ولبنان وامارات الجزائر ولو استطاع رجال كل مرحلة من مراحل التاريخية في هذه المنطقة الحيوية من ارض العراق والخليج ان يجتمعوا ويوحدوا قواهم ضد الغزو الفارسي او الاضطهاد العثماني لفعلوا الكثير لكن مشكلة التاريخ انه لا يعرف « لو » وان الاحداث مرهونة بظروفها وما قدمناه من اوراق لا يدل على وجود غزاة اجانب وحكام لا يهتمون باصالة وحرية هذه المدينة

العربية الاسلامية بل يكتشف عن صفحات نيرة من الصمود الشعبي البصري ايضاً في ظروف صعبة بالغة التعقيد والولاءات لم تتح للبطولة البصرية ان تسود بشكل واضح الا عند تيسر الظروف التي ما كانت كذلك دوماً بسبب قوة الاعداء وضغطهم المتواصل على هذه المدينة الشامخة بحضارتها وتاريخها العريق .

الهوامش

١ ـ د . عبد العزيز سليمان نوار ـ داود باشا والي بغداد ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ ـ ص ١٠ .
٢ ـ الحسني ـ م . س ـ ص ١٧٨ .
٣ ـ يسميه الحسني (علي باشا) ويميل جعفر خياط في ص ٩٩ من ترجمته لكتاب لونكريك الى تسميته بـ (ايوب) فيما يؤكد لونكريك أن اسمه (علي باشا) ! .
٤ ـ فتح الله الكعبي ـ زاد المسافر ـ بغداد ـ مطبعة الفرات ـ ١٩٢٤ ص ١٧ .
٥ ـ لونكريك ـ م . س . ص ٩٩ .
٦ ـ المصدر السابق ص ١٠٢ .
٧ ـ المصدر السابق ص ١٠٣ .
٨ ـ يتهم لونكريك منصور المشعشعي امير الحويزة بـ (الدسائس) على الايرانيين والواقع ان الرجل لم يكن يريد الحرب ضد البصرة واهلها ، الامر الذي دفع بحاكم شيراز الى غزو الحويزة وخلع منصور وتعيين محمد بن مبارك بديلاً عنه فلجا منصور الى علي باشا بن ابراسياب الذي رحب به ومنحه ارضاً مجاورة لحدود ملكه القديم ـ راجع الصفحات ٢٠ ـ ٢٨ من كتاب (امارة لعب العربية في القرن الثامن عشر) تاليف : د . علاء موسى كاظم نورس ـ د . عماد عبد السلام رؤوف ـ اصدار دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٢ .
٩ ـ لونكريك ـ ص ١١٢ .
١٠ ـ لونكريك ـ ص ١١٣ .
١١ ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين ـ الجزء الخامس ـ شركة التجارة والطباعة ـ بغداد ـ ١٩٥٣ ـ ص ١٤٤ .
١٢ ـ عباس العزاوي ـ المصدر السابق ـ الجزء السادس ـ ص ٥١ .
١٣ ـ عثمان بن سند الوائلي ـ مطالع السعود ـ تحقيق د . عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد الفيصي ـ اصدار وزارة الثقافة والاعلام ـ الدار الوطنية للنشر ـ مطبعة دار الحكمة ـ الموصل ـ ١٩٩١ ـ ص ٨٢ .
١٤ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٥٦ .
١٥ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٥٧ .
١٦ ـ ابن سند ـ ص ٨٤ .
١٧ ـ لونكريك ـ ص ١٧٩ .
١٨ ـ لونكريك ـ ص ١٧٩ .
١٩ ـ لونكريك ـ ص ١٨٧ .
٢٠ ـ لونكريك ـ ص ١٨٨ .
٢١ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٦٠ .
٢٢ ـ لونكريك ـ ص ١٨٩ .
٢٣ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ ص ٩٨ .
٢٤ ـ ابن سند ـ ص ١٧٠ .

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة